المجمع **14** (2019/1440)، 297-332

التعدديّة الثقافيّة في أدب الرحلات: رحلة ابن جبير نموذجًا

مشهور الحبّازي[1]

ملخّص

الرحلة والانتقال ميزة خصّ الله، سبحانه وتعالى، بها الإنسان، الذي قُدّر له إعمار الأرض، والتمتع بما أوجده الله فيها من زينة متنوّعة مصداقًا لقوله تعالى:﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾[2]. وقد زيّن الله للإنسان حبّ ما خلقه في هذه الأرض، لكنّه، سبحانه، وضع ضوابط للتمتّع بهذه الزّينة، وأنزل شرائع سماويّة لتوضيح ذلك، كان آخرها وختامها، والجامع لها القرآن العظيم، الذي جعل الرحلة والتّنقل في الأرض وسيلة من وسائل الهداية إلى الإيمان بالله الواحد الأحد، وقديمًا مثّل العالم المسلم محمّد بن عبد الملك المعروف بابن طفيل(ت581هـ) في قصّة " حيّ بن يقظان" أهمّية الرحلة في الوصول إلى معرفة الله الكاملة.

عرف العرب بطبيعة حياتهم الصّحراويّة والحضريّة نوعين من الرحلة: الرحلة الدائمة بحثًا عن الماء والعشب، والرحلة المنظمة بحثًا عن التّجّارة والتواصل مع الأمم الأخرى، وتمثّلت في رحلتي الشتاء والصيف.

بعد ظهور الإسلام فتح المسلمون بلادًا واسعة امتدّت ما بين الأندلس والصين، وقد ضمّت هذه البلاد أعراقًا، وشعوبًا، وأديانًا، ومذاهب، وطوائف دينيّة عديدة، وأكثر من أيّة دولة عرفها التاريخ البشريّ، وعاشت تلك الفئات إلى حدّ ما بوئام. وقد شجعت عوامل كثيرة المسلمين على الرحلة في بلاد الإسلام، وخارجها، وكان أن دوّن كثيرون مِمّن مارسوا الرحلة مُشاهداتهم، فظهر من ذلك أدب عُرف بأدب الرحلة. من أهمّ الرحالة الذين دوّنوا مشاهداتهم بصدق الرحالة ابن جبير الأندلسيّ، إذ أعطت رحلته صورة جديدة عن مدى التعدديّة الثقافيّة التي كانت تسود المجتمع الإسلاميّ.

في هذا البحث درست أهمّ جوانب التعدديّة الثقافيّة التي ظهرت في رحلة ابن جبير، من خلال تتبع حديثه عن البلدان التي زارها في رحلته المعروفة باسم" تذكرة بالأخبار عن اتّفاقات الأسفار". وتوصلّت إلى نتائج مهمّة حول مدى قدرة المجتمع الإسلاميّ على التعايش مع وجود تنوّع كبير في مختلف جوانب حياته.

---

[1] جامعة القدس- القدس.

[2] الكهف، 7/18.

سيرة ابن جبير

تحدّثت عن سيرة ابن جبير باختصار، وفق الآتي:

1. اسمه ونسبه وكنيته ومولده

هو: محمّد بن أحمد بن جبير بن سعيد بن جبير الكنانيّ، البلنسيّ، الغرناطيّ، الأندلسيّ، المكنّي بأبي الحسين.[1]

ولد ببلنسية سنة (540هـ)، ونشأ وترعرع فيها، ثمّ انتقل إلى شاطبة، فجيّان، واستقرّ بغرناطة وتوطّنها.[2]

2. ثقافته

تعلّم ابن جبير العلوم العربيّة، والشرعيّة، وقد أخذ أوّلًا عن والده في بلنسية، ثمّ أخذ عن كبار علماء غرناطة، وسبتة، ولمّا سافر لأداء فريضة الحجّ أخذ عن عدد من علماء المشرق في الإسكندريّة، والقاهرة، ومكّة المكرّمة، وبغداد، ودمشق وغيرها من مدن المشرق الإسلاميّ، وحصَل على إجازات في علوم عدّة.[3]

وأهمّ مَنْ أخذ عنهم في المشرق هم: عبد الرحمن بن علي المعروف بابن الجوزيّ (ت597هـ)، ومحمّد بن محمّد المعروف بالعماد الكاتب الأصفهانيّ (ت 597هـ) وغيرهما.

وقد برع في: الأَدب، والفقه، والحديث، واللغة، فتتلمذ عليه عدد كبير من طلبة العلم في الغرب والشرق الإسلاميّين[4].

---

[1] انظر: ابن الخطّيب، الإحاطة، 168/2؛ المقّريزي، المقفّى، 87/5؛ المقّري، نفح الطيب، 381/2؛ الزركلّي، الأعلام، 319/5.

[2] انظر: ابن الخطّيب، الإحاطة، 168/2؛ المقّري، نفح الطيب، 381/2.

[3] انظر: ابن الخطّيب، الإحاطة، 169/2؛ المقّري، نفح الطيب، 381/2؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 60/5.

[4] انظر: ابن الخطّيب، الإحاطة، 169/2، المقّري، نفح الطيب، 382/2.

3. وظائفه

الثقافة الواسعة التي حصّلها ابن جبير وبخاصّة في الأدب والفقه، مكّنته من العمل في وظيفتين هما:([1])

أ- كاتب سرّ

تولّى ابن جبير كتابة السّر لأمير غرناطة أَبي سعيد ابن عبد المؤمن ملك الموحّدين. وكانت هذه الوظيفة سببًا في رحلته الأوّلى إلى المشرق الإسلاميّ، لِما يُروى أنّه أراد التكفير عمّا أجبره الملك على شربه – من خمر-في أحد مجالسه.

ب- التدريس

وهذه مهنة أكثر العلماء على مدى العصور، ومنهم ابن جبير الذي جعلت -براعته في الفقه والحديث-طلبة العلم يُقبلون عليه في غرناطة وسبتة، وكثير من المدن التي زارها في رحلاته الثلاث كالإسكندريّة.

صفاته

اتّصف ابن جبير بكثير من الصّفات التي جعلته مقبولًا لدى حكام غرناطة، وعند طلبة العلم، وعامّة الناس، فقد عُرف بأنّه كان كريم الأخلاق، وكثير المحاسن، وورعًا، وكثير الأعمال الصّالحة، وصاحب همّة عالية، وطريقة حسنة، وفضل كثير.([2])

مؤلّفاته

لا شكّ في أنّ ابن جبير ترك عددًا من المؤلفات في النثر والشّعر، لكنّ ما ذكرته المصادر التي ترجمت له، وتمكّنت من الاطلاع عليها عدد قليل، وهي:([3])

---

[1] انظر: ابن الخطّيب، الإحاطة، 170/2.

[2] انظر: ابن الشعار، قلائد الجمان، 92/6؛ ابن الخطّيب، الإحاطة، 382/2.

[3] انظر: ابن الشعار، قلائد الجمان، 92/6؛ ابن الخطّيب، الإحاطة، 382/2؛ المقّريزي، المقفّى، 87/5؛ الزركلّي، الأعلام، 319/5.

1- في الشعر

أثنى كثير ممّن ترجموا لابن جبير على شعره، وشاعريته؛ فوصفوه بأنّه كان شاعرًا مجيدًا، وذا شعر فصيح، ونظم رائق، وموشّحات بارعة وقصائد مُسمّطة، فكان شعره سببًا في حصوله على وظائف مكّنته من العيش حياة سعيدة، وأهمّ مؤلفاته في الشعر، هي:

أ. نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح.

يضمّ جزءًا من شعره، نظمه في رثاء زوجه عاتكة، أُمّ المجد، بنت الوزير أبي جعفر الرقشيّ. وهو غير موجود.

ب. نظم الجمان في التشكّي من إخوان الزمان.

ج. له شعر في مديح صلاح الدّين الأيّوبيّ، بقي منه القليل.

د. له شعر مديح نبويّ. بقي منه القليل.

هـ. له نظم جمعه في مجلّد على قدر ديوان أبي تمّام، حبيب بن أوس الطائيّ (ت231هـ).

لكنّ ما بقي من شعره قليل جدًا قياسًا لما ذكره مَنْ ترجموا له، وقد جمعه اثنان من الباحثين.

2- في النّثر

أشاد كثيرون ممّن ترجموا لابن جبير بنثره، وكتابته، فذكروا أنّ نثره كان رائعًا وبديعًا، وكلّامه مرسلًا حسنًا، وبذلك تقدّم في صناعة الكتابة، فشغل وظيفة كاتب السّر لأمير غرناطة الموحّديّ. وأهمّ مؤلفاته في النثر، هي:

1. تذكرة بالأخبار عن اتّفاقات الأسفار.

وقد سجّل فيه حوادث رحلته الأوّلى إلى المشرق الإسلاميّ، التي أدّى فيها فريضة الحجّ لأول مرّة. ويعرف هذا الكتاب باسم "رحلة ابن جبير". وقد نشر عدّة مرّات. ومضمونه هو موضع هذه الدّراسة.

2. رسالة بعنوان "اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك". وهي غير موجودة.

3. له رسائل نثريّة بديعة.

الأرجح أنّها تخصّ عمله كاتبا للسّر لدى أمير غرناطة. وهي غير موجودة.

4. له كتاب في الحكم.

الأرجح أنّه استخلصها من مطالعاته، فدوّنها لتكون عبرة لمن يقرأها. وهي غير موجودة.

5. الأرجح أنه دوّن رحلته الثانية التي قام بها ما بين سنتي (585 و587هـ). والثالثة التي قام بها سنة (601هـ) وأدّى فريضة الحجّ سنة (602هـ) ولكنّ أيّا من الكتب التي ترجمت له لم تذكر أنّه سجّل هاتين الرحلتين كما فعل في الأوّلى.

خطّ سير الرحلة

كان هدف رحلة ابن جبير أداء فريضة الحجّ، ثمّ العودة إلى وطنه غرناطة، لكنّه لمّا رأى المعاناة والمشقّة والمعاملة السيّئة من أهل عيذاب، والحجاز قرّر عدم العودة من طريق الذهاب، بل السفر شرقًا مع ركب الحاجّ العراقيّ إلى بغداد، فدمشق، ومنها إلى عكّا المحتلّة من الإفرنج حيث يستأجر مركبًا متوجّهًا إلى موطنه[1].

وعليه فقد اختلفت طريق رحلته عن طريق رحلة غيره من حجاج أهل الأندلس، والمغرب الإسلاميّ. وقد سار ابن جبير في رحلته على النحو الآتي:[2]

1- مرحلة الذهاب

خرج ابن جبير من غرناطة قاصدًا أداء فريضة الحجّ يوم الخميس (8) من شوّال سنة (578هـ) وفق (3) من شباط سنة (1183م)، فمرّ ببعض البلدان الأندلسيّة لقضاء بعض حوائجه، ثمّ اجتاز البحر من مضيق جبل طارق إلى مدينة سبتة بعدوة المغرب، ثمّ ركب مركبًا روميًّا لأهل مدينة جنوة الإيطاليّة قاصدًا الإسكندريّة يوم الخميس (29) من شوّال الموافق (24) من شباط، فمرّ بمحاذاة سواحل الأندلس، وبعض الجزر في البحر الأبيض المتوسط ومنها جزيرة صقلية، ووصل الإسكندريّة بعد ثلاثين يومًا أي يوم السبت (29) من ذي القعدة سنة (578هـ) الموافق (26) من آذار سنة (1183م).

---

[1] انظر: ابن جبير، تذكرة بالأخبار، ص64-68.

[2] انظر: المصدر نفسه، ص41-240.

غادر ابن جبير الإسكندريّة إلى القاهرة برًّا، ثمّ غادر القاهرة بمركب عبر نهر النيل يوم الأحد (6) من محرّم سنة (579هـ) الموافق الأوّل من أيّار سنة (1183م)، فمرّ ببلاد كثيرة إلى أن نزل مدينة قوص بصعيد مصر، ومن قوص ركب الجمال عبر الصحراء إلى ميناء عيذاب على البحر الأحمر ليجتاز إلى جدّة بشبه الجزيرة العربيّة، فوصلها يوم الثلاثاء (4) من ربيع الآخر سنة (579هـ) الموافق (26) من تمّوز سنة (1183م)، ثمّ قصد مكّة المكرّمة، فوصلها يوم الثلاثاء (11) من ربيع الآخر سنة (579هـ) الموفق (2) من آب سنة (1183م)، ومكث فيها ثمّانية أشهر وثلث الشهر أي (245) يومًا. ثمّ غادر إلى المدينة المنوّرة لزيارة قبر الرسول صلّى الله عليه وسلّم، والصّلاة في مسجده، والمجاورة فيه، فمكث فيها خمسة أيّام.

2- مرحلة الأياب

لم يَعُد ابن جبير عبر الطريق المعهود لأهل المغرب الإسلاميّ والأندلس بل غادر نحو المشرق الإسلاميّ مع ركب الحاج العراقيّ، وذلك اتقاءً للمعاناة والمشقّة التي لاقها في الحجّاز، وجدّة وعيذاب، فرحل من المدينة المنوّرة يوم السبت (8) من محرّم سنة (580هـ) الموافق (21) من نيسان سنة (1184م)، فدخل العراق عن طريق الكوفة، ثمّ وصل بغداد في الثالث من صفر سنة (580هـ) الموافق (16) من أيّار سنة (1184م)، ومكث فيها ثلاثة عشر يومًا، حيث غادر إلى الموصل مارًّا بمدينتي سُرّ مَنْ رأى (السامراء)، وتكريت، ثمّ ذهب غربًا عبر ديار بكر وربيعة، ثمّ عبر الفرات إلى مدينة حلب، ومنها إلى مدينة دمشق، فوصلها يوم الخميس (24) من ربيع الأوّل سنة (580هـ) الموافق (5) من تمّوز سنة (1184م).

ثمّ غادر دمشق آخر محطّة له في أراضي الدولة الأيّوبيّة إلى الأراضي المحتلّة من قبل الإفرنج (الصليبيّين)، فوصل مدينة عكّا على الساحل الشاميّ يوم الثلاثاء (10) من جمادى الآخرة الموافق (18) من أيلول - التي كانت قد أخذت مكانة بيت المقدس من حيث الأهمّية، وقد شبّهها ابن جبير بالقسطنطينيّة في عظمها، بعد تحريرها من قبل القائد الخالد صلاح الدّين الأيّوبيّ سنة (583هـ) الموافق سنة (1187م)، وقد أخذ ابن جبير مكانًا له في مركب إفرنجي عائدًا إلى غرناطة يوم الخميس (10) من رجب الموافق (18) من

تشرين الأوّل على مركب إفرنجي مصنوع لنقل حجّاج الإفرنج والمسلمين على حدّ سواء، وصاحبه من مدينة جنوة الإيطاليّة، كان متوجّهًا إلى مدينة مسيني في جزيرة صقلية، فساروا في البحر أيّاما طويلة صعبة، فوصل مسيني بصقلية في(4) رمضان الموافق (9) من كانون الأوّل، ثمّ وصل ميناء قرطاجنة بالأندلس يوم (15) من محرّم سنة(581هـ) الموافق (25) من نيسان سنة (1185م)، وأنشد قائلا:

فألقت عصاها واستقرّ بها النّوى

كما قرَّ عينًا بالإياب المُسافرُ

وبذلك كانت مدّة رحلته عامين كاملين وثلاثة أشهر ونصف شهر.

تمهيد

يتعرّض العرب المسلمون في أنحاء العالم هذه الأيّام، ومنذ بداية العشريّة الثالثة من القرن الخامس عشر الهجريّ/ العشريّة الثانية من القرن الحادي والعشرين الميلاديّ إلى موجات متلاحقة، وبشكلّ تصاعديّ من الاتّهامات الباطلة، الهادفة إلى الإساءة للعرب؛ قوميًّا ودينيًّا، ومن بين أهمّ تلك الموجات ما يتمُّ استخدامه فيما يسمى بالربيع العربيّ من قضايا التعدديّة الثقافيّة، واللّغويّة، والدينيّة، التي أُلصقت بالأقلّيّات غير العربيّة و غير الإسلام من الديانات التي تعيش بين ظهراني العرب والمسلمين، وقد شكلّت القضية المتفرّعة عن التعدديّة بأنواعها المختلفة، وهي حقوق الأقلّيّات مُدخلًا لجهات عديدة للتدخّل في شؤون كلّ من: العراق، وسوريا، ولبنان، وليبيا، وبين الحين والآخر في عدد مُتزايد من الدول العربيّة بعامّة، ودول الخليج العربيّ أو شبه جزيرة العرب بخاصّة، وإذا ما حاولنا التّحقّق من تلك الاتّهامات، نجد أنّها لا تصمد أمام الحقائق المُستقاة من القرآن الكريم، والسنّة النّبوية الشّريفة، وكذلك من الحقائق المُستقاة من وقائع تكاد لا تُحصى في التاريخ العربيّ الإسلاميّ، وذلك على النحو الآتي:

أوّلًا-دينيًّا، قال الله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عليمٌ﴾[1]. وقال عزّ وجلّ :﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[2]. وقال سبحانه وتعالى :﴿وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾[3]. قال جلّ شأنه :﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[4]. وقال عزّ من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كلّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[5].

ثانيًا-تاريخيًّا، كلّ من يستقرئ التاريخ الإسلاميّ من مصادره المختلفة يجد أنّ الإسلام حافظ على الأقلّيّات العرقيّة، ولم يعمل على إلغائها أو دمجها، وكذلك الحال بالنسبة للدّيانات المختلفة التي كانت موجودة قبله سواء أكانت سماويّة أم وضعيّة، وذلك على الرّغم من الجزم بأنّ الدّين المقبول عند الله يوم القيامة هو الدّين الإسلاميّ، وأنّه لن يُقبل من بشرٍ غيره دينًا؛ وذلك أنّ الله، سبحانه وتعالى، ارتضاه لعباده المسلمين المؤمنين، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ﴾[6]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[7]. وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عليكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[8]. فالإسلام ودولة الخلافة الإسلاميّة بدءًا من عهد الخلفاء الراشدين وحتّى إلغاء الخلافة الإسلاميّة العثمّانيّة في العشريّة الرابعة من القرن الرابع عشر الهجريّ / العشريّة الثالثة من

---

[1] البقرة، 256/2.

[2] الكافرون، 6/109.

[3] الروم، 22/30.

[4] الحجّرات، 13/49.

[5] الحجّ، 17/22.

[6] آل عمران، 19/3.

[7] آل عمران، 85/3.

[8] المائدة، 3/5.

القرن العشرين الميلاديّ احترم التنوّع الثقافيّ، والعرقيّ، والدينيّ، واللغويّ لكلّ رعايا دولة الخلافة الإسلاميّة، باعتبارها قيمًا أساسيّة للدّولة الإسلاميّة، وقد شكّلت التعدديّة عامل تكامل وإغناء للثقافة العربيّة الإسلاميّة، ولم تكن أبدًا عامل تفكُّك، وتفتيت للوحدة الوطنيّة، والدينيّة، كما شكّلت الثقافة العرقيّة والدينيّة المتنوّعة في دولة الخلافة الإسلاميّة روافد مهمّة لمجرى نهر الثقافة العربيّة الإسلاميّة الشامل والقوي، وكانت دولة الخلافة الإسلاميّة وعاءً اتّسع لكلّ مكوّنات الدولة، فصَهر الثقافات القوميّة والإقليميّة ضمن وحدة عضويّة جديدة، وبذلك كانت الثقافة العربيّة الإسلاميّة ثقافة مُنفتحة على العالم كلّه، وليس على العالم المحيط بها فقط، فاكتسبت طابعًا عالميًّا في كلّ جزئياتها تقريبًا، ولم تسع كغيرها من الدول إلى دمج الأقلّيّات العرقيّة والمذهبيّة، وغير دينها السائد من الديانات إلى ما تسمّيه الدمج والصهر الهادف إلى الإلغاء في نهاية المطاف، وليس أدلّ على ذلك ممّا يحصل الآن في كثير من الدول غير الإسلاميّة في الغرب والشرق على حدّ سواء حيث تسعى بحجج واهية إلى ما تسمّيه دمج المهاجرين إليها للمحافظة على ما تسمّيه قيمها فيما هي تسعى لفرض ما سيؤدّي إلى تفكيك بعض المجتمعات العربيّة والإسلاميّة بحجّة المحافظة على حقوق الأقلّيّات العرقيّة والمذهبيّة التي عاشت إلى ما قبل عقد من الزمن مئات السنوات في أمن وأمان في تلك المجتمعات ولم يكن لديها مشكلّة في العيش لا عرقيّة ولا مذهبيّة.

وأدب الرّحلات في التراث العربيّ والإسلاميّ بعامّة، ورحلة ابن جبير المُسماة "تذكرة بالأخبار عن اتّفاقات الأسفار" بخاصّة تُعطي صورة حقيقيّة للتعدّديّة الثقافيّة في دولة الخلافة الإسلاميّة حتّى في وقت كانت تخوض فيه حرب وجود وقيم مع الإفرنج (الصليبيّين) الذين غزوا المشرق الإسلاميّ منذ نهاية القرن الخامس الهجريّ/ الحادي عشر الميلاديّ، وحتّى نهاية القرن السابع الهجريّ/ الثالث عشر الميلاديّ في حقبة تاريخيّة عُرفت باسم زمن حروب الفرنجة عند المؤرّخين العرب والمسلمين قديمًا، وباسم الحروب الصليبيّة عند المؤرّخين الغربيّين.

وفي هذا البحث سأتناول نماذج متنوّعة من ألوان التعدديّة الثقافيّة التي رآها ابن جبير بأُمّ عينيه، ورواها بأمانة، وذلك وفق المحاور الآتية:

أوّلًا- التعدديّة اللغويّة

ضمّت دولة الخلافة الإسلاميّة لغات كثيرة، ولم تفرض لغتها العربيّة على أيّة قوميّة أو أيّ عرق وُجد في إطارها، فكان فيها ثلاث لغات سائدة ومنتشرة إلى حدّ كبير وهي: العربيّة، والفارسية، والتركية، فيما وُجدت لغات كثيرة منتشرة بين شعوبها المسلمة وغير المسلمة.

وقد تحدّث ابن جبير عن وجود لغات عديدة في البلاد التي زارها في رحلته، كما تحدّث عن بعض الألفاظ والمصطلحات اللغويّة الخاصّة التي كانت شائعة في بعض مناطق دولة الخلافة الإسلاميّة، بين بعض الفئات في المجتمع العربيّ المسلم، ومن ذلك: أنّ بعض المسلمين المسافرين مع ابن جبير كان يعرف اللّسان الرّوميّ (لغة الروم وهي اللغة السائدة في ميناء قوسمركة بجزيرة سردانية). حيث نزل مسلم يعرف لغة أهل سردانية من السفينة إلى برّ ميناء قوسمركة مع بعض الرّوم، ولمّا عاد إلى السفينة أخبر ابن جبير وبعض المسلمين على السفينة أنّه رأى نحو ثمّانين أسيرًا مسلمًا بين رجال ونساء يُباعون في السوق، وقد أسرهم الإفرنج من بعض السواحل الإسلاميّة[1] ؛ كما ذكر أنّ بعض المسلمين من الأعاجم الخراسانيّين كان يجمع بين اللّسانين، العربيّ والعجميّ، فكان يعظ المصلّين بعد صلاة العتمة (العشاء)، فينال استحسان العرب والعجم[2]. ومقابل ذلك ذكر ابن جبير أنّ بعض كتّاب ديوان النصارى الإفرنج في ميناء عكّا كانوا يعرفون اللّغة العربيّة، فيتكلّمون بها ويكتبون، قال: "فيها كتّاب الديوان من النّصارى بمحابر الأبنوس المذهّبة الحلي، وهم يكتبون بالعربيّة ويتكلّمون بها"[3].

يُلاحظ من الخبرين أنّ تعلّم اللغات كان حاجة اجتماعيّة واقتصاديّة وعسكريّة واستخباريّة لدى الطّرفين المسلم والنّصرانيّ الإفرنجيّ، وذلك على الرغم من حالة الحرب الضّروس التي كانت قائمة بين الجانبين.

---

[1] انظر: ابن جبير، تذكرة بالأخبار، ص42.

[2] انظر: المصدر نفسه، ص134.

[3] انظر: المصدر نفسه، ص211.

وقد ذكر ابن جبير بعض الألفاظ والمصطلحات الإفرنجيّة التي سمعها في رحلته من الإفرنج، ومنها:

1- القَرية: هي الخشية التي ترتبط بها الأشرعة الصغيرة في السفينة التي تنقل الرّكاب المسافرين، وهي لفظة شائعة في جزيرة سردانية[1].

2- البلغريين: تعني الحجّاج النّصارى. وهي تعريب للكلّمة اللاتينيّة أو الإيطاليّة أو الإنجليزيّة[2].

وفي إطار التعدديّة اللغويّة بين العرب والمسلمين أنفسهم، ذكر ابن جبير عددًا من الألفاظ اللّغويّة التي سمعها في مناطق مختلفة من البلدان التي زارها، والتي كان لها دلالات خاصّة، لم يكن يعرفها ابن جبير، وغيره من العرب والمسلمين من غير المناطق الجغرافيّة الشائعة فيها، ولذلك قام ابن جبير بشرح تلك الألفاظ، وتفسيرها بشكلّ كامل، ومن تلك الألفاظ:

1- الشقاديف: لفظة كانت تُستخدم من قبل أهل قوص وعيذاب. وتعنى: ما يشبه المحامل التي توضع على الإبل، وهي أنواع، أحسنها النوع اليمانيّ. وهي تكون واسعة ومجلّدة، يُربط الاثنان منها بحبال متينة، توضع على ظهر البعير، ولها أذرع في الأركان، وتوضع عليها مظلّة يجلس فيها الرّاكب وعديله (موازيه في الركوب)، وهي تستخدم للترفيه، ويتوافر بداخلها لمن يركبها وسائل ترفيه عديدة منها: القراءة، ولعب الشّطرنج، وطعام وشراب. وهذه الشقاديف للخاصّة من الناس، ويستخدمها الأثرياء.[3]

2- شجر العشر: نوع من الشجر يشبه شجر الأترج، لكن لا شوك له، وهو ينبت في موضع يعرف بالعشراء قرب ميناء عيذاب على البحر الأحمر عن جهة مصر[4].

---

[1] انظر: المصدر نفسه، ص43.

[2] انظر: المصدر نفسه، ص216.

[3] انظر: المصدر نفسه، ص62.

[4] انظر: المصدر نفسه، ص63.

3- الجلبة: وهي السفينة المُخصّصة لنقل الحجّاج بين ثغري عيذاب وجدّة، ولا تُستعمل في صناعتها المسامير البتّة. وهي تخاط بأمراس من القنبار، وهذا يصنعونه بأنّهم يدرسونه إلى أن يتخيّط، ويفتلون منه أَمراسًا يُخيطون بها المراكب، ويخلّلونها بِدُسر من عيدان النخل، فتُشدُّ بها ألواح الجلبة بعضها إلى بعض، ثمّ يُسقون الجلبة بالسمن أو دهن الخروع أو دهن القرش وهو أحسن أنواع الدّهن؛ وذلك بهدف تليين عودها وترطيبه، لكثرة الشعاب المعترضة في البحر الأحمر.

وتجلب عيدان الجلبة من الهند واليمن، وكذلك القنبار. وأشرعتها تنسج من خوص شجرة المقل؛ فيكون مجموعها يتناسب في اختلال البنية ودهنها[1].

4- القنبار: قشر جوز النارجيل، يُجلب من الهند واليمن.[2]

5- دهن القرش: زيت يؤخذ من حوت القرش العظيم الذي يعيش في البحر الأحمر، وهو يبتلع من يغرق في البحر.[3]

6- أمراس القنبار: الخيط المأخوذ من قشر جوز النارجيل، يتمّ درسه إلى أن يتخيّط، ثمّ تُفتل منه أمراس (خيوط) تُخاط بها المراكب المسمّاة الجلبة.[4]

1- الدّسر: عيدان من النّخل يتمُّ تخليل الجلبة بها.[5]

2- خوص شجر المقل: تنسج منه أشرعة الجلبة.[6]

---

[1] انظر: المصدر نفسه، ص64-65.والمُقل في لسان العرب هو حمل الدّوم، والدّوم شجرة تُشبه النخلة في حالاتها، والأرجح أنّ ابن جبير سمّى الشجرة باسم ثمّرها . انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة مقل.

[2] انظر: المصدر نفسه، ص65. والقِنبير والقُنيبير: نوع من النبات. انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة قنبر.

[3] انظر: المصدر نفسه، ص65.

[4] انظر: المصدر نفسه، ص65.

[5] انظر: المصدر نفسه، ص65. الدُّسر: إدخال شيء في شيء بقوّة، فيشدّ الشيئين بعضهما إلى بعض بدلًا من المسامير الحديد، وقيل هو: خيط من ليف يُشدّ به ألواح السفينة (الجلبة هنا). انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة دسر.

[6] انظر: المصدر نفسه، ص65.

3- الخاتون: لقب يطلق على النساء العواقل لسلاطين السلاجقة وأمرائهم.[1]

4- القشاوات: قباب يضعها الأمراء السّلاجقة والأعاجم على الإبل لِتظلّهم، وهي بديعة المنظر، عجيبة الشكلّ، تُنصب على محامل من الأعواد، وهي تشبه التوابيت المجوّفة، فتكون لِرُكّابها من الرّجال والنساء كالمهد للطفل.

وتملأ بالفرش الوثيرة، ويقعد الراكب فيها مُستريحًا كأنّه في مهاد ليّن فسيح، وبإزائه مُعأدلّه أو معادلّته في مثل ذلك من الشقّة الأخرى. والقبّة (القشاوة) مضروبة عليهما، فيُسار بهما وهما نائمان لا يشعران بشيء من التّعب والمشقّة، أو يُسار بهما كيفما أحبّا.[2]

5- المحارت: وهي قباب مثل القشاوات سابقتها لكنّها دونها في الراحة للرّاكب، وهي تشبه الشّقادف، لكنّها أضمّ وأضيق، وعليها ظلائل تقي حرّ الشّمس، كما أنّها أكثر رفاهيّة منها، وأقلّ سعة[3].

6- الصاحب أستاذ الدار: لقب يُطلق على القيم المرافق للخليفة العباسيّ ببغداد، مُهمّته الإشراف على جميع شؤون الدور الخليفيّة، وكان يُدعى له بعد الدّعاء للخليفة.[4]

7- المنجانة: الساعة الدّقاقة في المسجد الأمويّ.[5]

8- الصليبيّة: تصليب أشرعة السفن المسافرة من عكّا إلى بلاد الإفرنج موافقة للرّيح، وكان ذلك يتم في فصل الخريف، وهو أحسن أوقات السفر حينذاك. وربّما أُخذ اسم الحروب منها.[6]

---

[1] انظر: المصدر نفسه، ص131، 136. والخاتون: كلّمة فارسيّة تعني المرأة صاحبة الكلّام في البيت والمتصرّفة فيه، ومنها خاتون بالتركيّة والكرديّة. انظر: ادّي شير، الألفاظ الفارسيّة، ص51.

[2] انظر: المصدر نفسه، ص132.

[3] انظر: المصدر نفسه، ص132.

[4] انظر: المصدر نفسه، ص163.

[5] انظر: المصدر نفسه، ص187.

[6] انظر: المصدر نفسه، ص216.

9- شجرة الميزان: شجرة بلّوط عظيمة الجرم مُتّسعة التدويح، وهي حدّ بين الأمن والخوف في وسط الطّريق إلى بانياس.[1]

ثانيا- التعدديّة الدينيّة

ذكر ابن جبير عددًا من الدّيانات التي كانت تعيش في ظلّ دولة الخلافة الإسلاميّة –غالبًا- بأمن وأمان، كما ذكر بعض المذاهب في الدّين الواحد، وعلاقاتها بعضها ببعض، ومن أهمّ الديانات التي ذكرها:

1- الإسلام

كان ابن جبير مسلمًا ملتزمًا تعاليم الدّين الحنيف؛ لذلك فإنّه عندما كان يرى بعض التصرّفات المناقضة لتعاليم الإسلام الحنيف من قبل بعض المسلمين، كان ينتقد تلك التصرّفات، ويدعو إلى تغييرها ومن ذلك:

أ. شكا من قيام عمّال ميناء الإسكندريّة بتحصيل أموال الزكاة من الأندلسيّين من دون تأكدّهم من مرور حول (سنة) على ما لديهم من ممتلكات أم لا، ومن طريقة تفتيش المسلمين من أهل الأندلس وإلزامهم بحلف اليمين، ما أدّى إلى ذهاب كثير من ممتلكات الناس. ولكنّه برّأ السّلطان صلاح الدّين الأيّوبيّ من المسؤوليّة عمّا يقوم به هؤلاء العمّال-لعدله، وألقى باللوم في ذلك على عمّال الدّواوين، قال: "وهذه لا محالة من الأمور الملبّس فيها على السّلطان الكبير المعروف صلاح الدّين، ولو علم بذلك –على ما يؤثر عنه من العدل، وإيثار الرفق- لأزال ذلك، وكفى الله المؤمنين تلك الخطّة الشاقّة"[2].

[1] انظر: المصدر نفسه، ص209.

[2] انظر: المصدر نفسه، ص45.

كما شكا ما كان يتعرّض له الحجّاج في منطقة الصعيد بمصر بعامّة، وفي مدن: أخميم، وقوص، ومنية ابن الخصيب بخاصّة، من تفتيش مذلّ وتحصيل للزكاة مرّة ثانية[1].

ب. شكا من البجاة السوادنيّين وهم نوع من السودان يسكنون الجبال في منطقة عيذاب، يُؤجّرون الإبل للحجّاج، ويسلكون بهم طرقًا لا ماء فيها، فكان أكثر هؤلاء الحجّاج يموتون عطشًا، فيحصل البجاة السوادنيّون على ما يكون لدى الحجّاج من نفقة أو غيرها، قال يصفهم : " فرقة أضلّ من الأنعام سبيلًا، وأقلّ عقولًا، لا دين لهم سوى كلّمة التوحيد التي ينطقون بها إظهارًا للإسلام، ووراء ذلك من مذاهبهم الفاسدة وسيرهم ما لا يرضى ولا يحل، ورجالهم ونساؤهم يتصرّفون عراة إلّا خرقًا يسترون بها عوراتهم، وأكثرهم لا يستترون، وبالجملة فهم أمّة لا خَلاق لهم، ولا جُناح على لاعنهم "[2].

ج. شكا من معاملة أهل عيذاب للحجّاج، فهم كانوا يعاملونهم معاملة سيئة، إذ يملأون الجلاب (سفن نقل الحجّاج في البحر الأحمر) بالحجّاج، فتصبح كأنّها أقفاص الدّجاج المملوءة، وذلك حرصًا منهم على تحصيل ثمّن جلباتهم بأسرع وقت، ومن دون أيّة مراعاة لأرواح الحجّاج، وكانوا يقولون: "علينا الألواح وعلى الحجّاج بالأرواح"[3].

د. شكا من سوء أخلاق أهل الحجّاز الذين يسكنون ما بين جدّة ومكّة المكرّمة، واعتبرهم بلا دين قال: "وأكثر أهل هذه الجهات الحجّازيّة، وسواها فِرق وشِيع لا دين لهم، قد تفرّقوا على مذاهب شتّى، وهم يعتقدون في الحاج ما لا يُعتقد في أهل الذمّة، قد

[1] انظر: المصدر نفسه، ص59.

[2] انظر: المصدر نفسه، ص65.

[3] انظر: المصدر نفسه، ص65.

صيّروهم من أعظم غلّاتهم التي يستغلّونها؛ ينتهبونهم انتهابًا، ويسبّبون لاستجلاب ما بأيديهم استجلابًا، فالحاج لا يزال في غرامة ومؤنة إلى أن يُيَسِّر الله رجوعه إلى وطنه"[1].

هـ. شكا من سوء معاملة شريف مكّة المكرّمة للحجّاج؛ إذ فرض على الحجّاج أن يضمن بعضهم بعضًا إلى أن يأتيه المال والطعام اللّذان فرضهما له السلطان صلاح الدّين الأيّوبيّ بدلًا من الضرائب التي كان يأخذها من الحجّاج، ما دفع ابن جبير إلى المطالبة بتطهير الحجاز منهم قال: "فأحقّ بلاد الله بأن يُطهّرها السّيف، ويغسل أرجاسها وأدناسها بالدّماء المسفوكة في سبيل الله، هذه البلاد الحجازيّة، لما هم عليه من حلّ عُرى الإسلام، واستحلال أموال الحاجّ ودمائهم"[2].

و. وهذا دفعه لتأييد ما ذهب إليه بعض فقهاء الأندلس من إسقاط الفريضة عنهم قال: " فمَنْ يعتقد من فقهاء أهل الأندلس اسقاط هذه الفريضة عنهم، فاعتقاده صحيح لهذا السّبب، وبما يُصنع بالحاجّ ممّا لا يرتضيه الله عزّ وجَلّ"[3]. وأكّد ذلك بأنّه قال إنّ البيت الحرام بأيدي أقوام قد اتّخذوه معيشة حرام، فسلبوا الحجّاج أموالهم، وعاملوهم بالذلّة والمسكنة؛ وذلك بسبب إيمانهم ببدع لا صلة لها بالدّين الإسلاميّ.

ز. انتقد عدم صلاة أصحاب المذاهب السّنّيّة الأربعة بعضهم مع بعضهم في مكان واحد من المسجد الحرام بل لكلّ منهم مكان خاص يُصلّي فيه، إذ ذكر أنّ الشافعيّة يُصلّون أولًّا؛ لأنّ مذهبهم كان المقدّم من الخليفة العباسيّ، ثمّ يأتي المالكيّ، ثمّ الحنفيّ. وهو أعظم الأئمّة أُبّهة؛ لأنّ الدولة الأعجميّة كلّها على مذهبه، ثمّ الحنبليّ، لكنّ أتباع المذاهب الأربعة يُصلّون صلاة المغرب في وقت واحد، فيقيم الصّلاة مُؤذّن الشافعيّ، ثمّ باقي الأئمة، وبذلك قد يسهو بعض مَنْ يُصلّي صلاة المغرب أو يغفل عن بعض ما يجب أن يقوم به من أعمال في الصّلاة؛ وذلك لاجتماع التكبير فيها من كلّ جهة، فقد

[1] انظر: المصدر نفسه، ص68.

[2] انظر: المصدر نفسه، ص69.

[3] انظر: المصدر نفسه، ص69.

يركع المالكيّ بركوع الشافعيّ أو الحنفيّ، أو قد يُسلّم بعض المُصلّين بغير سلام إمامه، وذلك على الرّغم من حرص كلّ مُصلٍّ على إصاخة سمعه لإمامه، أو صوت مؤذّنه.[1]

ح. انتقد إقدام جماعة من أهل مكّة على الشهادة زورًا برؤية هلال شهر ذي الحجّة فيما كانت السماء مُلبّدة بالغيوم، وذلك أنّهم رغبوا في أن يكون يوم الوقوف بعرفة يوم الجمعة، وكأنّ الحجّ لا يرتبط إلّا بهذا اليوم بعينه، وقد أيّد تلك الجماعة من أهل مكّة المكرّمة طائفة من أهل مغرب ومصر، فشهدوا عند القاضي برؤية الهلال لكنّ القاضي ردّ شهادتهم جميعهم، وفضح تزييف أقوالهم؛ لأنّ القاضي كان يحرص على تحرّي رؤية الهلال من الثّقاة؛ لأنّ ذلك يرتبط بأداء مناسك فريضة الحجّ العظيمة عند المسلمين الذين قدموا لأداء هذه الفريضة من كلّ فجٍّ عميق.[2]

بناء على الانتقادات السابقة رأى ابن جبير أنّ الإسلام الحقيقيّ ليس موجودًا إلّا ببلاد المغرب، أمّا المشرق فأغلبه يسوده البدع والأهواء، والفرق الضالّة، قال: "وليتحقق المتحقّق، ويعتقد الصحيح الاعتقاد، أنّه لا إسلام إلّا ببلاد الغرب، لأنّهم على جادّة واضحة لا بنيات لها، وما سوى ذلك –مِمّا بهذه الجهات المشرقيّة- فأهواء وبدع، وفرق ضالّة وشيع، إلّا مَنْ عصم الله، عزّ وجلّ، من أهلها، كما أنّه لا عدل، ولا حقّ، ولا دين على وجهها إلّا عند الموحّدين، أعزّهم الله، فهم آخر أئمة العدل في الزمان".[3]

ولكنّه -وعلى الرّغم من هذا الموقف الشديد إزاء أهل المشرق بعامّة وأهل الحجاز بخاصّة- استثنى من الملوك صلاح الدّين الأيّوبيّ، إذ كثيرًا ما مدحه، وأشاد بصفاته، وأخلاقه، وعدله، وربّما يعود موقفه ذلك لأمور سياسيّة؛ إذ لا يستطيع انتقاص أهل الأندلس، وسُلطانهم لأنّه سيعود إليهم، كما لا يستطيع انتقاد صلاح الدّين الأيّوبيّ وأمرائه، وهو يتجوّل في أرض تخضع في معظمها لسلطانه، فيما هو لم يستطع تجاوز ما شاهده وعاناه من هؤلاء الأقوام في رحلة

[1] انظر: المصدر نفسه، ص85.

[2] انظر: المصدر نفسه، ص126.

[3] انظر: المصدر نفسه، ص69.

حجّه، وعلى الرّغم من كلّ تلك الانتقادات التي وجّهها للمسلمين في مصر والحجّاز إلّا أنّه مدح جماعات أُخرى، ويظهر ذلك من خلال الآتي:

أ. مدح فقهاء بغداد وَوُعّاظها بأنّهم يداومون التنبيه والتّبصير، ويثابرون على إنذار الناس وتحذيرهم من عواقب ارتكاب المعاصي والخيلاء، ورأى أنّهم بذلك يلتزمون طريقة مباركة.[1]

ب. ذكر أنّ أهل مدينة منبج والمناطق المحيطة بها كانوا مُسلمين شافعيّين، وهم أهل فضل وخير، وأحوالهم مُستقيمة، ومُعاملاتهم صحيحة، وهي بلاد مطهّرة من أهل المذاهب المنحرفة والعقائد الفاسدة؛ إذ كانوا يحرصون على تطهير بلادهم من أتباع تلك المذاهب كما فعلوا في قرية الباب بين بزاغة وحلب، فقاموا بتطهيرها من الإسماعيليّة الملاحدة.[2]

ج. أنّ أهل الشام أنشأوا فرقة سمّوها "النبويّة"، وهي تضم شبابًا مسلمين، يؤمنون بمبدأ الفتوّة، وأمور الرّجولة كلّها، ومن يلتحق بفرقة النّبويّة يُقسم قسمها، وهو يبرّ بقسمة ولا يحنث، وهؤلاء يتميّزون بالأنفة والائتلاف فيما بينهم، ومهمّتهم قتل الرّوافض أينما وجدوهم. "وسلّط الله على هذه الرّافضة طائفة تُعرف بالنبويّة، سنّيّون يُدينون بالفتوّة وبأُمور الرّجولة كلّها".[3]

د. مدح أهل حرّان والمناطق المحيطة بها من الموصل إلى ديار بكر إلى ديار ربيعة إلى الشام بأنّهم يُحبّون الغرباء، ومُعتدلون في معاملاتهم، ويُؤثرون الفقراء (المتصوّفة)، وبينهم عدد كبير لا يُحصون من الزّهاد والعُبّاد الذين يعتكفون في الجبال.[4]

كما ذكر أنّ الصوفيّة ينتشرون في دمشق ومحيطها، وأنّ لهم خوانق كثيرة، وقد علا شأنهم بين فئات المجتمع الإسلاميّ، فوصفهم بالملوك لتوافر أسباب العيش الهنيّ لهم، وانشغالهم

---

[1] انظر: المصدر نفسه، ص158.

[2] انظر: المصدر نفسه، ص177.

[3] انظر: المصدر نفسه، ص196.

[4] انظر: المصدر نفسه، ص174.

عن الكسب الماديّ بأمور العبادة، ووصف إحدى الخانقاوات وإحدى الربط واسمها "القصر" قال في وصف الثانية:"وهو قصرٌ عظيم مُستقلّ في الهواء، في أعلاه مساكن لم يُر أجمل إشرافًا منها" و جعل حياة المتصوّفة فيها كحياة الملوك فقال:"وهذه الطائفة الصوفيّة هم الملوك بهذه البلاد؛ لأنّهم قد كفأهمّ الله مؤن الدنيا وفضولها، وفرّغ خواطرهم لعبادته من الفكرة في أسباب المعايش، وأسكنهم في قصور تُذكّرهم قصور الجنان"[1].

وذكر أنّ بعض المسلمين كانوا ينقطعون للعبادة في جبال لبنان، وأنّ معاملة المسلمين بعضهم لبعض كانت حسنة.[2]

2- الشيعة

رأى ابن جبير أنّ الشيعة هم رافضة ملاحدة، وقد ذكر بعض فرقهم وأحوالهم، وذلك على النحو الآتي:

أ. الزيديّة: كان لهم إمام في الحرم المكّيّ الشريف، كما أنّ أشراف مكة المكرّمة كانوا على المذهب الزيديّ، وهم يزيدون في الأذان عبارة "حيّ على خير العمل". وهم روافض سبّابون، لا يُصلّون الجمعة، بل يُصلّون الظهر أربع ركعات، ويُصلّون المغرب بعد فراغ الأئمة الأربعة (الشافعيّ، والمالكيّ، والحنبليّ، والحنفيّ) من صلاتهم.[3]

---

[1] انظر: المصدر نفسه، ص199.

[2] انظر: المصدر نفسه، ص201.

[3] انظر: المصدر نفسه، ص84-85. والزّيديّة هم فرقة شيعيّة، أتباع زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب، يجعلون الإمامة في أولاد فاطمة، رضي الله عنها، من دون غيرهم، والإمام واجب الطاعة، ويقولون بجواز وُجود إمامين في قطرين، ويكون كلّ منهما واجب الطاعة، وبجواز إمامة المفضول مع قيام الأفضل، ما أدّى بشيعة الكوفة إلى رفض القول الثاني، فسُمّوا رافضة، ثمّ قال أكثر الزّيديّة بالطعن في الصحابة طعن الإماميّة، وهم ثلاثة أصناف. انظر: الشهرستاني، الملل والنحل، 154/1.

ب. الإسماعيليّة: فرقة ملحدة، خرجت عن الإسلام، وادّعت الإلهيّة في سنان، وهو شيطان من الأندلس، خدعهم بسحره وأباطيله، فاتّخذوه إلهًا. لا يعصون له أمرًا، حتّى لو أمر أحدهم بالسقوط من جبل شاهق الارتفاع فإنّه يفعل ذلك.

وكان لهم حصون وقلاع في مناطق مختلفة من بلاد الشام، ومنها حصون كثيرة في سفوح جبال لبنان، كما كانوا يسكنون في بلدات وقرى خاصّة بهم، ومن ذلك سكنهم في بلدة الباب بين بزاغة وحلب، لكنّ المسلمين استأصلوهم منها سنة (572هـ)[1].

ج. الرّافضة: وهم السبّابون وهم كُفّار.[2]

د. الإماميّة: يقولون بالتفضيل.[3]

---

[1] انظر: المصدر نفسه، ص177، 180، 196. والإسماعيليّة هم فرقة شيعيّة تنتسب إلى إسماعيل بن جعفر الصّادق، واختلفوا في موته في حياة أبيه؛ فبعضهم قال: لم يمُت، بل أعلن أبوه وفاته تُقية من الخلفاء العباسيين، وكتب في ذلك محضرًا أشهد عليه والي المدينة المنوّرة للخليفة أبي جعفر المنصور، رضي الله عنه، وهو المهدي المنتظر، وسمي أتباعها الإسماعيليّة الخالصة. وبعضهم قال: مات، فانتقلت الإمامة إلى ابنه محمّد، الذي غاب وهو المهدي المنتظر، وسمي أتباعها الإسماعيلية المباركية، وقسمت قسمين: القرامطة الذين رفضوا القول بموت محمّد. والعبيدية الذين عملوا سرًا من مدينة سلمية الواقعة شمالي شرقي حمص بسوريًا، وتمكنوا من إقامة الدولة العبيدية التي حكمت ما بين (296 و567هـ). وللإسماعيليّة ألقاب كثيرة أشهرها: الباطنيّة؛ وذلك لقولهم إنّ لكلّ ظاهر باطنًا ولكلّ تنزيل تأويلًا. وشاع هذا اللقب ولقب القرامطة والمزدكيّة في العراق، فيما شاع لقب التعليّمية والملحدة في خراسان، ولعلّ ذلك ما جعل ابن جبير يصفهم بالملاحدة. انظر: الشهرستاني، الملل والنحل، 1/167-168، 191- 198؛ الحمادي المعافري، كشف أسرار الباطنية، ص106- 125.

[2] انظر: ابن جبير، تذكرة بالأخبار، ص123. والرافضة هم شيعة الكوفة الذين رفضوا قول الزيديّة بجواز إمامة المفضول مع قيام الأفضل، وقيل: هم فرق الشيعة كلّهم؛ لأنّهم رفضوا خلافة الشّيخين أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما. انظر: الشهرستانيّ، الملل والنحل، 1/154.

[3] انظر: المصدر نفسه، 1/154. والإماميّة هم فرقة شيعيّة، يقولون إنّ الرسول، صلّى الله عليّه وسلّم، نصّ ظاهرًا بإمامة عليّ بن أبي طالب، وعيّنه تعيينًا، وليس في الدّين أمر أهمّ من تعيين الإمام، وهم يسبّون الصحابة، رضوان الله عليّهم، ويُكفّرونهم، ثمّ اختلفوا في تعيين أئمتهم، فانقسموا فرقًا كثيرة. انظر: الشهرستانيّ، الملل والنحل، 1/162.

هـ. النّصيريّة: وهم كفرة؛ لأنّهم ينسبون الإلهيّة لعليّ بن أبي طالب، كرّم الله وجهه[1].

و. الغرابيّة: وهم يقولون إنّ عليّا، رضي الله عنه، كان أشبه بالنّبي، صلّى الله عليه وسلّم، من الغراب بالغراب، وينسبون إلى جبريل عليه السلام الخطأ[2].

ز. وتوجد فرق كثيرة أخرى كلّها فرق ضالّة مضلّة[3]: قال: "وللشيعة في هذه البلاد أمور عجيبة، وهم أكثر من السُّنيّين بها، وقد عمّوا البلاد بمذاهبهم، وهم فرق شتّى: منهم الرافضة وهم السّبّابون، ومنهم الإماميّة والزيديّة وهم يقولون بالتفضيل خاصّة... إلى فرق كثيرة يضيق الإحصاء قد أضلّهم الله، وأضلّ بهم كثيرًا من خلقه".[4]

3- السامريّون

فرقة من اليهود، تعرف بالسامرة، نسبة إلى السامريّ، وكانوا يسكنون نابلس في زمن الاحتلال الصليبيّ لها، ولمّا هاجم صلاح الدّين الأيّوبيّ نابلس ودهمها بعسكره سنة (580هـ) قتل عددًا كبيرًا منهم ومن الإفرنج وسبى عددًا آخر، وغنم غنائم لا تُحصى.[5]

4- النّصارى

على الرغم من الحروب الكثيرة والطاحنة التي كانت تدور زمن رحلة ابن جبير بين المسلمين

---

[1] انظر: ابن جبير، مصدر سابق، ص211. والنصيريّة هم من فرق الشيعة الغاليّة، وينتسبون إلى محمّد بن نصير النميريّ، الذي ادّعى أنّه نبي بعثه أبو الحسن العسكريّ، وهو يقول بالتناسخ والغلو في أبي الحسن وبربوبيته، وهم يبيحون المحارم كلّها، ومنها اللّواط بزعم أنّه يمثل التواضع والتذلل، ويدّعون أنّ الله، سبحانه وتعالى، لم يُحرّم شيئًا، وهناك من يرى أنّهم ينتسبون إلى نصير غلام عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه، وهم يدّعون أُلوهية عليّ، وأنه يسكن السحاب، وأنّ الرعد صوته، والبرق ضحكه، وأنّ سلمان الفارسي، رضي الله عنه، رسوله، ويوجد لهم آراء ضالّة كثيرة تخرجهم من دائرة الإسلام، وسمّهم الاحتلال الفرنسيّ باسم العلويّين تجميلًا لهم. انظر: النوبختي، فرق الشيعة، ص135؛ الشهرستاني، الملل والنحل، 188/1؛ محمّد كرد عليّ، خطّط الشام، 260/6.

[2] انظر: ابن جبير، مصدر سابق، ص125.

[3] انظر: ابن جبير، مصدر سابق، ص200.

[4] انظر: المصدر نفسه، ص201.

[5] انظر: المصدر نفسه، ص208.

والنصارى إلّا أنّ ابن جبير أورد نماذج عديدة من العلاقة المتناقضة بين المسلمين والنّصارى، لكنّها تدلّ على طبيعة الدّين الإسلاميّ الذي يحفظ حقوق أهل الذّمة، طالما كانوا مُعاهدين، لا مُحاربين، ومن الأمثلة على أحوال النصارى المعاهدين، وعلاقتهم بالمسلمين:

أ. قرية تل العقاب قرب مدينة دنيصير، وهي قرية كانت للنصارى المعاهدين الذِّميِين، وتعيش بأمن وأمان في ظلّ الحكم الإسلاميّ.[1]

ب. قرية الجسر: قرب مدينة دنيصير، كان يسكنها مُعاهدون من فرق الرّوم، ويعيش أهلها بأمن وأمان في ظلّ الحكم الإسلاميّ.[2]

ج. قرية القارة: قرية كبيرة بالقرب من دمشق، كان يسكنها -عندما زارها ابن جبير-النّصارى المُعاهدون، ولا يوجد فيها أيّ مسلم.[3]

وقد عجب ابن جبير من طبيعة العلاقة بين بعض النّصارى والزّهاد المسلمين، حتّى في ظروف الحرب، فذكر أنّ النّصارى الذين كانوا يسكنون قريبًا من جبل لبنان، كانوا يُحسنون للزّهاد المسلمين المُنقطعين للعبادة في جبل لبنان، وهم (النّصارى) يقولون: "هؤلاء مِمّن انقطع إلى الله، عزّ وجلّ، فتجب مُشاركتهم "[4].

كما أنّ الأصدقاء من المسلمين والنّصارى كانوا يتزاورون حتّى زمن وقوع الفتنة ونشوب الحرب بين المسلمين والنّصارى في جبل لبنان، قال: "ومن أعجب ما يحدث به أنّ نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين: مسلمين ونصارى، وربّما يلتقي الجمعان، ويقع المصاف بينهم، ورفاق المسلمين والنّصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم". [5]

كما أنّ النّصارى كانوا يفرضون ضرائب على تُجّار المسلمين الداخلين بلادهم، وتجار النّصارى يدفعون ضريبة للمسلمين عندما يدخلون بلاد المسلمين، ولا تؤثر الحروب على

[1] انظر: المصدر نفسه، ص209.

[2] انظر: المصدر نفسه، ص64.

[3] انظر: المصدر نفسه، ص64-65.

[4] انظر: المصدر نفسه، ص104-106.

[5] انظر: المصدر نفسه، ص171.

التّجّار من أهل الدّيانتين، قال: "وأهل الحرب مُشتغلون بحربهم، والناس في عافية، والدّنيا لمن غلب"[1]. ويعيش الرعايا المدنيّون والتّجّار من أهل الدّيانتين في أمن في أوقات السِّلم والحرب. قال: "ومن أعجب ما يحدث به في الدّنيا أنّ قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الإفرنج، وسببهم يدخل إلى بلاد المسلمين". ودليل ذلك أنّ ابن جبير خرج من دمشق في قافلة قاصدًا ميناء عكّا في الأرض المحتلّة من الإفرنج وكان سببهم يدخل إلى بلاد المسلمين، وقد فسّر ذلك باعتدال سياسة الطّرفين.

ثالثًا-التعدديّة الاجتماعيّة

ذكر ابن جبير عدّة فئات اجتماعيّة كانت تعيش في بلاد الخلافة الإسلاميّة العباسيّة التي زارها، وهي: مصر، والحجّاز، والعراق، والأناضول، وسوريا. وكانت تلك الفئات تنتمي إلى عدّة أعراق، منها: العرب، والكرد، والترك، والبربر. كما كانت تأوي فئات اجتماعية هاجرت من موطنها الأصليّ إلى مواطن أخرى لأسباب عديدة، فسكنت البلاد الجديدة، واتّخذتها موطنًا جديدًا لها، ولاقت تلك الفئات مُعاملة متنوعة ما بين بلد وآخر من قبل السّلاطين، والولاة، والتّجّار، وعامّة الناس.

كما ذكر ابن جبير في رحلته بعض العادات والتقاليد التي شاهدها في مختلف البلاد التي زارها، فعجب من بعضها، وأبدى دهشة واستغرابًا كبيرين، ومدح بعضها، وأثنى عليها، وحثّ على الإفادة منها، كما ذكر بعضها الثالث، فانتقد تصرُّفات وعادات لها، ومدح عادات وسلوكات أخرى، ومن الفئات التي ذكرها ابن جبير في رحلته:

1- الأحباش: سكنوا مدينة عيذاب بمصر منذ زمن بعيد، فعظُم شأنهم في السكن، والزراعة، والنقل البحريّ بواسطة الجلاب، وقد نزل ابن جبير في دار أحد قادة هؤلاء الأحباش، ويدعى مونج[2].

[1] انظر: المصدر نفسه، ص201.

[2] انظر: المصدر نفسه، ص64.

2- البجاة: هم فئة من السّودان، كانوا يسكنون الجبال في عيذاب، ويُؤجِّرون إبلهم للحجّاج يقطعون بها الصّحارى إلى عيذاب، وكثيرًا ما يهلكون عطشًا، ولهم سلطان من أنفسهم. يزورون والي عيذاب من الغز إظهارًا للطّاعة لكنّ أغلب الأجر الذي كانوا يحصلون عليه من الحجّاج كان يعود للبجاة إلّا قليله يذهب للوالي الغزيّ[1].

3- السّرو: وهم ينتمون إلى قبائل يمنيّة عديدة منها قبيلة تُدعى بجيلة، كانت تسكن جبال السّراة الحصينة، وكانوا يقدمون إلى مكة المكرّمة قبل موسم الحجّ بعشرة أيّام، فيجمعون بين نية أداء العمرة، وتزويد أهل مكّة المكرّمة، ووفود الحجّاج القادمين من مختلف المناطق الإسلاميّ بأنواع الأطعمة المتنوّعة مثل: الحبوب بكلّ أصنافها، والسّمن، والعسل، والزّبيب، واللوز، فهم يأتون بالطّعام، والأدام، والفاكهة. وكانوا يصلون مكّة المكرّمة بالآلاف، وكان وصولهم إلى مكّة المكرّمة يؤدّي إلى رفاهية أهلها وأهل القرى المجاورة؛ فترخص الأسعار، ويدّخر أهل تلك المناطق كثيرًا ممّا كانوا يشترونه في موسم الحجّ من قبائل السرو لسدّ حاجاتهم حتّى موسم الحجّ التالي، ولم تكن قبائل السّرو تتعامل في تجارتها تلك بالدّينار، بل يتعاملون بمقايضة بضائعهم بالخرق، والعباءات، والشِمَل، والأقنعة، والملاحق المتينة وما يُشابه ذلك مِمّا يلبسه الأعراب. وكانت ملابسهم تتكون من إِزَرٍ وَسِخَةٍ أو جلود تسترهم.

وكان لقدوم قبائل السّرو إلى مكّة المكرّمة في موسم الحجّ أثرٌ اقتصاديّ إيجابيّ عليها؛ فتخصب بلادهم، وتقع البركة في أموالهم، أمّا إذا ما امتنعوا عن الذهاب إلى مكّة المكرّمة فكان الجدب والقحط يعمّ بلادهم؛ فتموت مواشيهم وأنعامهم، ويتفشّى فيهم الفقر والحاجة، لذلك عندما كان يقترب موسم الحجّ، ويغفل رجال القبائل عن الاستعداد للسّفر إلى مكّة المكرّمة، كانت نساؤهم يجتمعن، ويُخرجنهم إلى مكّة المكرّمة لتحقيق هدفين في آن واحد: الأوّل لصالح تلك القبائل كلّها، والثاني لصالح أهل مكّة المكرّمة والقرى المحيطة بها، وجموع الحجّاج الوافدين إليها من كلّ فجٍّ عميق.

[1] انظر: المصدر نفسه، ص64-65.

وبلادهم اليمنية خصبة واسعة، بل كثيرة التين والعنب، وافرة الغلّات، وهم يعتقدون أن البركة كلّها في تجارتهم مع أهل مكة.

وهم عرب صرحاء، وفصحاء، وجفاة، وأصحاء ولم تُؤثِّر بهم المدينة، كما لم تهدهم شريعة الإسلام، فليس لهم من العبادات إلّا صدق النّية، فإذا كانوا بالكعبة المشرّفة يلوذون بأستارها، فتمزّقها أيديهم لشدّة اجتذابهم لها، وانكبابهم عليها، ويأخذون بالدُّعاء الذي يصدع القلوب ويُفجرّ العيون، فيتحلّق الناس حولهم وهم يبسطون أيديهم ويؤمنون وراءهم، وطوال مدّة طوافهم لا يستطيع أحد الطّواف، واستلام الحجّر الأسود، وإذا فُتح باب الكعبة يدخلون بسلام وهم مترابطون فيصل عددهم (30 و40) وإذا مال أحدهم يقع الكلّ فيضحك من يراهم.

وصلاتهم غير صحيحة، فيسجدون دون ركوع، وينقرون السّجود نقرًا، وقد يسجد الواحد منهم سجدة أو اثنتين أو أربع، ثمّ يرفعون رؤوسهم من الأرض قليلًا، وأيديهم مبسوطة عليها، وينظرون يمينًا وشمالًا نظر الخائف ثمّ يُسلمون أو يقومون دون تسليم أو جلوس للتشهّد، وربّما تكلّموا في أثناء ذلك، وربّما رفع أحدهم رأسه من سجوده إلى صاحبه، وصاح به ووصّاه بما شاء، ثمّ عاد إلى سجوده. وغير ذلك من الغرائب.

وهم أهل بأس ونجدة، يحملون قسيًّا كبيرة كأنّها قسيّ القطّانين لا تفارقهم في أسفارهم، ومتى رحلوا يهابهم الأعراب في الطّريق، ولا يعترضونهم، ومَنْ يصحبهم من الحجّاج يحمدون صحبتهم.

وعلى الرّغم من كلّ ما سبق من نقدهم إلّا أن ابن جبير يثني على حسن إيمانهم، واستشهد على صحّة أحوالهم بأنّ النّبي، صلّى الله عليه وسلّم ذكرهم في قوله: "علّموهم الصّلاة يعلموكم الدّعاء". وهم يدخلون في عموم قوله، صلّى الله عليه وسلّم "الإيمان يمان". كما يُروى أنّ عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، كان يحترم وقت طوافهم، ويتحرّى الدخول بينهم تبرّكًا بأدعيتهم. وهم أهل فصاحة بديعة، ودعاؤهم كثير التخشيع للنّفوس[1].

[1] انظر: المصدر نفسه، ص104-106.

4- الأكراد: يسكنون في جبال منيعة قرب مدن: الموصل، ونصيب، ودنيصر، وهم آفة البلاد، إذ يُغيرون على القوافل المسافرة، ويقطعون الطرق، ويثيرون الفساد في البلاد ما وجدوا إلى ذلك سبيلًا. ولم يستطع سلاطين البلاد وحكّامهم وقف فسادهم وقطعهم للطرق، حتّى كانوا يشنّون هجومهم، فيصلون أحيانًا إلى باب مدينة نصيبن، ولذلك قال ابن جبير: إنّه والقافلة قطعوا طريقهم بحذرٍ وتأهّب من اعتداءاتهم[1].

5- الروم: كانوا يسكنون قرية الجسر ما بين دنيصر ورأس العين ومن المعاهدين للمسلمين[2].

6- الغرباء: لم يحدّد ابن جبير الفئة التي ينتمي إليها هؤلاء الغرباء الذين ذكرهم، لكن يستفاد من المواضع التي ذكرهم فيها أنّهم من أهل الغرب الإسلاميّ الذين وفدوا إلى المشرق الإسلاميّ بدوافع عديدة من أهمّها: المشاركة في الجهاد ضد الغزو الفرنجيّ الصليبيّ لديار الإسلام، وطلب العلم، وطلب الرزق، والتعبّد، والحجّ، وقد اختلف تعامل أهل الشرق الإسلاميّ معهم ما بين معاملة حسنة وأقل من ذلك، ومن المواضع التي ذكرهم فيها:

أ. في الإسكندريّة: وفّر السلطان صلاح الدّين الأيّوبي للغرباء رعاية وعناية أشاد بها ابن جبير، واعتبرها من مفاخر الإسكندريّة، ومن وسائل العناية: أنّه وفّر لهم المدارس، وأماكن السكن، وأسباب المعيشة، ومعلمين يُعلّمون كلّ وافد العلم الذي يرغب به، وزاد على ذلك بأن عيّن للغرباء الطارئين حمّامات يستحمّون فيها متى شاؤوا، وعيّن لهم مشفى لعلاجهم، ووظف في المشفى أطباء، ومساعدين للأطباء يقومون برعاية شؤون المرضى في المشفى من حيث: تقديم العلاج والطعام اللازمين، ولم يكتف صلاح الدّين بذلك بل عيّن موظّفين يقومون بزيارة الغرباء الذين لا يصلون المشفى في منازلهم، فيقومون بفحصهم، وينقلون أوضاعهم الصحية لأطباء المشفى الذين بدورهم يتكفّلون

[1] انظر: المصدر نفسه، ص171.

[2] انظر: المصدر نفسه، ص172.

بعلاجهم. كما عيّن صلاح الدّين لعابري السبيل من المغاربة في الإسكندريّة، لكلّ واحد خبزتين كلّ يوم، ووكلّ أمر ذلك لإنسان أمين.

وكلّ ما سبق من عناية بالمغاربة، وعابري السبيل، وطلبة العلم كان يتم الإنفاق عليهم من ريع أوقاف حبسها على تلك الأغراض، ومن زكاة العين، ومن حسابه الخاصّ إن احتاجوا لذلك[1].

ب. في القاهرة: جعل السلطان صلاح الدّين الأيّوبيّ مسجد أحمد بن طولون مأوى للغرباء من المغاربة؛ يسكنون ويتعلّمون فيه، وأجرى عليهم أرزاقًا كلّ شهر. ومنحهم ما يمكن أن نسمّيه بالحكم الذاتيّ؛ إذ ينتخبون من أنفسهم حاكمًا يتقاضون إليه، وليس لأحد عليهم شيئًا من أهل مصر، فتفرّغوا للعبادة وطلب العلم، وساعدهم صلاح الدّين في كلّ ما يحتاجونه من وسائل العيش[2].

ج. في الطائف: ذكر ابن جبير أنّه يوجد في قرى الطائف وعيونها مغاربة يقومون بأعمال الفلاحة والزّراعة، أنشأوا فيها بساتين ومزارع، فكانوا سببًا في إخصاب هذه المناطق وكثرة ما فيها من: فواكه، وثمّار، وخضار، وحبوب[3].

د. في بغداد: أشار ابن جبير إلى أنّ أهلها كانوا يزدرون الغرباء، ودخل لتكبّرهم، ولكونهم يعتقدون أنّهم وبغداد هم الأفضل في الدّنيا، وهم منافقون في معاملتهم مع غيرهم، لا يظهرون الودّ لأحد إلّا إن كان لهم مصلحة له، لكنّه استثنى من ذلك الفقهاء والوعاظ.[4]

هـ. في الموصل: ذكر ابن جبير أنّ أهلها خيّرون، يعملون المعروف في كلّ وقت، وهم بشوشون مع مَنْ يتعامل معهم، ويحادثونهم بالكلّمة الطيبة اللّينة، ويقبلون على الغرباء، ويكرمونهم.

---

[1] انظر: المصدر نفسه، ص45-46.

[2] انظر: المصدر نفسه، ص52.

[3] انظر: المصدر نفسه، ص98.

[4] انظر: المصدر نفسه، ص164.

ثمّ ذكر أنّ المواطنين في الموصل وديار بكر وربيعة إلى دمشق الشام يُحبّون الغرباء، ويكرّمون الفقراء، فلا يجعلونهم يحتاجون إلى زاد في تنقّلهم بين هذه البلاد.[1]

و. في دمشق: ذكر ابن جبير أنّ أهل دمشق أكثر أهل الشام احتفاء بالغرباء، واعتناء بهم، إذ لهم فيها مرافق كثيرة، ولذلك حثّ مَنْ يشاء من أهل المغرب الإسلاميّ على قصدها للعيش أو طلب العلم حيث سيجد فيها ما يُعينه على ذلك ومنها: فراغ البال من أمر المعيشة، إذ لا يحتاج مَنْ يريد الحياة السعيدة سوى الهمّة والاجتهاد في طلب الرزق، وإكرام أهل الشام للغرباء، وتفضيلهم الفقراء، وخصّ أهل البادية بالتفضّل في معاملة الفقراء حتّى إنّهم يبكون رفض أحد الفقراء أن يأكلّ ما يعرضه عليه من خبز.

ومن الأعمال التي يمكن أن يعملها المغاربة في الشام وريفها: الزراعة والإمامة والتعليم حيث يجد أهل الضيعة (القرية) يكرّمونه بالخبز، فيوفّرون له طيب العيش. وإذا ما سئم ضيعة يخرج إلى أخرى، فيجد المعاملة ذاتها. ثمّ بإمكانه الانقطاع للعبادة في جبل لبنان أو جبل الجوديّ، فيتعلّم مع المريدين من أمثاله ما يشاء، ويعمل ما يشاء[2].

وفي قرية بيت لاهيا أوقاف كثيرة حبست على الغرباء، وأمين هذه القرية كان يدعى سليمان ابن إبراهيم بن مالك له مكانة عند السلطان صلاح الدّين وكبار رجال دولته، وكان مهتمًّا بإيواء أهل الغرب الإسلاميّ المنقطعين بدمشق فيوفّر لهم:

1- وجوه المعيشة من: إمامة في مسجد، أو المسكن في مدرسة مع إجراء النفقة عليه، أو التزام زاوية من زوايا المسجد الجامع مع توفير الرزق، أو حضور في قراءة سبع، أو سدانة مشهد من المشاهد المباركة مع الرزق أو غير ذلك.
2- صيانة الغريب المحتاج مع حفظ ماء الوجه.
3- توفير العمل في البساتين، أو الحراسة فيها.
4- توفير العمل في الحمّامات أو الطواحين.

[1] انظر: المصدر نفسه، ص169، 174.

[2] انظر: المصدر نفسه، ص200-201.

5- كفالة صبيان (الحضانة).

وقد علّل ابن جبير إكرام الشاميّين للمغاربة بخاصّة والغرباء بعامّة بأن ذلك يعود لأمانتهم، فذاع بذلك صيتهم، وذلك لطف من الله سبحانه بالغرباء قال: "وليس يؤتمن فيها كلّها سوى المغاربة الغرباء؛ لأنّهم قد علا لهم بهذا البلد صيت في الأمانة، وطار لهم فيها ذكر، وأهلها لا يأتمنون البلديين، وهذا من ألطاف الله، تعالى، بالغرباء"[1].

وقد أشار ابن جبير إلى معاملة الإفرنج القاسية والانتقاميّة للمغاربة، وهو ما يُسمّى اليوم عند الغرب بالعقوبة الرّادعة، حيث ذكر أن الإفرنج في حصن بتنين وهو الموضع الذي يفرض فيه الإفرنج الضرائب (المكوس) على المسلمين الذين يدخلون البلاد التي يحتلّونها، فقال إنّ الإفرنج يعترضون على المغاربة ضريبة بمقدار دينار على كلّ رأس يدخل البلاد المحتلّة، وعزا ذلك إلى أنّهم شاركوا في إحدى الغزوات التي قادها نور الدّين زنكي على أحد حصونهم، فكان لهم دور كبير في تحرير هذا الحصن، قال: "وأكثر المعترضين في هذا المكس المغاربة، ولا اعتراض على غيرهم من جميع بلاد المسلمين؛ وذلك لمقدمة منهم أحفظت الإفرنج عليهم. سببها: أنّ طائفة من أنجادهم غزت مع نور الدّين، رحمه الله، أحد الحصون، فكان لهم في أخذه غنى ظهر وأشهر، مجازاهمّ الإفرنج بهذه الضريبة المكسية، ألزموها رؤوسهم، فكلّ مغربي يزن على رأسه الدّينار المذكور في اختلافه على بلادهم"[2].

رابعًا-التعدديّة في العادات والتقاليد

ذكر ابن جبير عددًا غير قليل من العادات والتقاليد التي كان يمارسها أهل البلاد الإسلاميّة التي زارها، فأعجب ببعضها، واستنكر بعضها الآخر، ومن العادات التي أعجبته:

[1] انظر: المصدر نفسه، ص195.

[2] انظر: المصدر نفسه، ص210.

1- أنّ الحياة في الإسكندريّة تستمرّ في الليل كما النهار في جميع الأحوال وكثرة مساجدها؛ إذ تتراوح ما بين (8-12) ألف مسجد، بحيث يكون في الموضع الواحد (4-5) مساجد، ولكلّ مسجد إمام راتب (مُعيّن رسميًّا وله راتب).[1]

2- يوجد في مقبرة القرّافة: مساجد ومشاهد، يسكنها الغرباء والعلماء والصّلحاء والفقراء (الصوفيّة). ولكلّ راتب مُعيّن من السلطان صلاح الدّين الأيّوبيّ[2].

3- أهالي مدينتي دشنة وقنا لهم مأثرة في صيانة نسائهم بحيث يُلزموهن البيوت، فلا يخرجن بأيّ زقاق: "ومن مآثرها المأثورة صون نساء أهلها والتزامهن البيوت، فلا تظهر في زقاق من أزقّتها امرأة البتّة"[3].

4- عجب من شظف العيش الذي يعيشه أهل جدّة، وما يليها من الصّحراء والجبال، ومن عملهم في كلّ ما يُتاح لهم من مهمّة مثل: تأجير الجمال للحجّاج، وبيع اللّبن، أو الماء، أو التّمر، أو الحطب. ومن عمل نسائهم في الأعمال ذاتها أحيانًا، وذلك على الرغم من من أنّهم أشراف علويّون وحسنيّون، وحسينيّون وجعفريّون[4].

5- عجب ابن جبير من توافر أنواع السلع والثمّار والفواكه، والجواهر، وأنواع الطيب، والعقاقير التي تُجلب إليها من كلّ مكان وبخاصّة: اليمن والعراق، وخراسان والهند والحبشة والمغرب وغيرها، وذكر أنّ كلّ ما هو في الدنيا يوجد بمكّة المكرّمة، وذلك بفضل دعاء إبراهيم، عليه السلام، وزاد عجبه كثرة ما فيها من أصناف الفواكه والثمّار التي كان يظنّ أنّها مختصرة في الأندلس، فلمّا حلّ مكّة المكرّمة وجدها مليئة بها، ولا تنقطع طوال السنّة، ولكلّ نوع منها فضيلة في الذّوق على غيرها في سائر البلاد، وأعطى أمثلة على ذلك، فالبطيخ له رائحة عبقة تشغل الشَّام عن الأكلّ، وله مذاق أحلى من السكر

[1] انظر: المصدر نفسه، ص78.

[2] انظر: المصدر نفسه، ص51.

[3] انظر: المصدر نفسه، ص61.

[4] انظر: المصدر نفسه، ص68.

والعسل. وأما العسل وبخاصّة المسعوديّ منه، وأنواع اللّبن وما يصنع منه فنهاية في الطّيب، والزّبيب الأحمر والأسود الذي يجلبه قبائل السّرو من اليمن، فهو في نهاية الطّيب، كما يصنعون أصنافًا كثيرة من الحلوى من العسل والسكر المعقود مع جميع أنواع الفواكه الرّطبة واليابسة، وبخاصّة في أشهر: رجب وشعبان ورمضان، ويقيمون منها موائد بين الصّفا والمروة لم يُشاهد ابن جبير شبهًا لها.

ويشهد كلّ مَنْ في مكّة المكرّمة مهما اختلفت أقطارهم أنّه لا يوجد أطيب من لحوم ضأنها، فعلى الرغم من إفراط سمنه ترغبه النّفس، وتجده يذوب في الفم قبل أن يُلاك مضغًا، وهو خفيف على المعدة في الهضم بعكس لحوم باقي الدّنيا المدهنة التي تعافها النّفس، وذلك عند ابن جبير لبركة مكّة المكرّمة.[1]

6- في الوقت الذي كان فيه ابن جبير وقبله كانت مكّة المكرّمة آمنة من الحرّابة والمتسلطين على الحجّاج، حيث كانوا آفة الحرم الشّريف. وذلك بسبب تشديد أمير مكّة المكرّمة عليهم فتوقّف شرّهم عن الحجّاج.[2]

7- لأهل مكّة ومحيطها سيرة حسنة تتمثّل في أنّهم عند بداية كلّ شهر يتصافحون، ويهنئ بعضهم بعضًا، ويطلب له المغفرة؛ ويدعون لبعضهم كفعلهم أيّام الأعياد، ورأى ابن جبير أنّ هذه العادة مفيدة فقال: "وتلك طريقة من الخير واقعة في النّفوس، تُجدّد الإخلاص، وتستمدّ الرحمة من الله، عزّوجلّ، بمصافحة المؤمنين بعضهم بعضًا، وبركة ما يتهادونه من الدّعاء، والجماعة رحمة، ودعاؤهم من الله بمكان[3].

8- عجب ابن جبير من كثرة استخدام أهل بغداد للقار في طلاء حمّاماتهم، فهم يجلبونه من عين بين البصرة والكوفة، إذ يسيل من جوانب العين كالصّلصال، فيجرفه الناس

[1] انظر: المصدر نفسه، ص96.

[2] انظر: المصدر نفسه، ص98.

[3] انظر: المصدر نفسه، ص99.

ثمّ يأخذونه إلى بغداد وهو معقود. فيطلون به الحمّامات، فيخيّل للنّاظر أنّه رخام أسود صقيل[1].

9- سجّل ابن جبير بإعجاب كبير مآثر أهل الموصل وديار بكر وربيعة إلى الشام في الكرم، وحبِّ الغرباء وقرى الفقراء الصعاليك والوافدين عليهم. وكثرة عبّادهم وزهّادهم الذين يسيحون في الجبال[2].

10- أُعجب ابن جبير بحسن نجدة أهل حمص، وأقلّ منهم أهل حلب، وشدّة معرفتهم بأحوال عدوّهم من الإفرنج، وأرجع ذلك إلى مجاورتهم للإفرنج[3].

11- أُعجب ابن جبير بطريقة أهل الشام في استقبال قوافل حجّاج بيت الله الحرام، وذلك رغم قرب الحجاز منهم، وسهولة السفر إليه. قال: "فهم يتمسّحون بهم (الحجّاج) عند صدورهم ويتهافتون عليّهم تبركا". وهم يخرجون لاستقبال الحجّاج في جموع غفيرة؛ رجالًا ونساء، فيُصافحون الحجّاج ويتمسّحون يديه، ومعهم الطعام لهم، كما يدفعون أجرة للفقراء. وذكر من ذلك أنّ نساء كثيرات يُناولن الحاجّ خبزًا فإذا عضّه، اختطفته منه وبادرن لأكلّه تبرّكًا بأكل الحاجّ له، ويدفعن له عوض ذلك دراهمّ. وهذا لا يحدث في المغرب الإسلاميّ[4].

أما العادات والتقاليد التي أثارت استغراب ابن جبير، وانتقدها، فكثيرة، ومنها:

1- انتقد معاملة البجاة في عيذاب للحاجّ الذين ينقلونهم بسفن تسمّى الجلاب، إذ يملأونها فوق سعتها، فيجلس الحجّاج بعضهم فوق بعض، وقعود بهم من جدّة إلى عيذاب وكأنّها

[1] انظر: المصدر نفسه، ص164.

[2] انظر: المصدر نفسه، ص174.

[3] انظر: المصدر نفسه، ص182.

[4] انظر: المصدر نفسه، ص200.

أقفاص الدّجاج المملوءة، ولديهم مثلٌ يتداولونه في ذلك هو: "علينا بالألواح وعلى الحجّاج بالأرواح"[1]. وسبب ذلك رغبتهم في الحصول على أثمان جلابهم في سفرة واحدة.

2- انتقد معاملة أهل الحجاز للحجّاج؛ إذ يستغلونهم، وينهبونهم، فالحاجّ في غرامة عندهم حتّى يعود إلى وطنه قال: "وهم يعتقدون في الحاجّ ما لا يُعتقد في أهل الذمّة، قد صيّروهم من أعظم غلّاتهم التي يستغلّونها، ينتهبونهم انتهاًبا، فالحاجّ معهم لا يزال في غرامة ومؤنة إلى أن يُيسّر الله رجوعه إلى وطنه"[2].

3- انتقد طمع جدّ أمير مكّة المكرّمة إذ رغم أنّ النّفقة في الحرم المكيّ محظورة، لكنّه سمح لأحد دهاة الأعاجم من ذوي الملك والثراء أن يُعيد بناء تنور بئر زمزم، وقبّته من ماله الخاصّ، مقابل أن يعطيه مكافأة له على ذلك مقدار ما أنفقه، فأحضر أمير مكّة مَنْ يُقيّد كلّ ما ينفقه ذلك العجميّ، لكنّه لما انتهى مِمّا أراد تعميره ركب الليل، ندم الأمير، الذي لا يُمكنه تغيير ما أحدثه الأعجميّ. وبقي خبر هذا الرجل الأعجميّ مع الأمير من أحاديث أهل مكّة الغريبة والعجيبة[3].

4- انتقد ابن جبير تكبُّر أهل بغداد، ورياءهم في التواضع، وعدم إنفاقهم في سبيل الله، وقلّة ورعهم، وتلاعبهم في الكيل. وهم يستغلُّون الغرباء، ويعاملونهم بنفاق. واستثنى من ذلك فقهاء بغداد ووعّاظها[4].

5- استغرب كثيرًا العلاقة بين المسلمين والإفرنج، فعلى الرّغم من استقبال الحروب بينهم إلّا أنّ كلّا منهم يدخل بلد الآخر من دون معارضة، فقوافل المسلمين تأتي من مصر إلى دمشق عبر البلاد المحتلّة من الفرنج، والمسلمون يُسافرون من دمشق إلى عكّا المحتلّة، وتجار النّصارى لا أحد يمنعهم من دخول بلاد المسلمين. وكلّ منهم يدفع الضريبة المعتادة.

---

[1] انظر: المصدر نفسه، ص65.

[2] انظر: المصدر نفسه، ص68.

[3] انظر: المصدر نفسه، ص101.

[4] انظر: المصدر نفسه، ص157.

ويسجّل استغرابه بقوله "والاتفاق بينهم الاعتدال في جميع الأحوال، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم، والنّاس في عافية، والدّنيا لِمَنْ غلب"[1].

6- على الرغم من استغراب ابن جبير من اعتدال السياسة، وسيادة الأمن بين المسلمين والإفرنج خارج ساحات المعارك، إلّا أنّه أبدى استغرابًا أكثر من الحدّ الفاصل بين الأمن والخوف، حيث ذكر أنّه يوجد في منتصف الطريق بين بيت جن وبانياس شجرة بلوط ضخمة تُعرف عند أهل المنطقة من المسلمين والإفرنج بشجيرة الميزان، هي الحدّ بين الأمن والخوف حيث يوجد حرامية الإفرنج (الحواسة والقطّاع) فمَنْ أخذوه وراء الشّجرة إلى جهة بلاد المسلمين ولو بباع أو شبر يَتِمّ أسره، ومَنْ أُخذ دونها إلى جهة بلاد الإفرنج قدر ذلك أطلق سبيله[2].

[1] انظر: المصدر نفسه، ص201.

[2] انظر: المصدر نفسه، ص209.

الخاتمة

يتّضح من خلال استقراء ما ورد من معلومات في رحلة ابن جبير، وجود اختلافات كثيرة في الثقافة السائدة في البلاد الإسلاميّة، فضلًا عن تلك السائدة في بلاد الإفرنج، وكذلك في أسس التعامل المختلفة بين الطّرفين، وفي كلّ مجتمع على حدة، وأهمّ نتائج البحث هي:

1- وُجدت كثير من المفردات اللّغوية والمصطلحات المستخدمة في الدولة الإسلاميّة التي تختلف ما بين بلد وآخر، ما جعل ابن جبير يلجأ إلى تفسير بعض المصطلحات وتوضيحها للقرّاء.

2- وجود عدد من الجماعات المسلمة التي لا تراعي تطبيق الشّرع الحنيف مُقابل مصالح مادية زائلة، بعضها كان يفعل ذلك عن جهل، وعدم دراية مع طيب نيّة، وإيمان عميق، وبعضها الآخر كان يفعل ذلك بغرض تحقيق مصالح خاصّة.

3- وُجدت كثير من الفرق الشيعيّة الضّالة المضلّة، التي لم يكُن لها هم إلّا الإساءة للمسلمين، وقد أصدر ابن جبير حكمه عليهم بتكفيرهم.

4- كثرة العبّاد والزّهاد والمتصوّفة في المنطقة ما بين الموصل إلى حلب إلى دمشق وجبل لبنان.

5- وُجدت عادات اجتماعيّة مختلفة في البلاد الإسلاميّة إلى درجة أنّ ابن جبير استغرب وجودها مُقارنة مع ما هو كائن في الأندلس والغرب الإسلاميّ.

6- العلاقة بين المسلمين والإفرنج في غير ساحات الحروب تقوم على المعاهدات حيث يسود الأمن والتعامل التّجاريّ والاعتدال في السياسة.

أما أهمّ توصية في هذا البحث، فتتمثل في ضرورة إجراء دراسات مُقارنة للتعدّدية في كلّ مجالات الحياة ما بين رحلة وأخرى، ويُفضّل أن تكون مُتقاربة زمانيًّا وفي الأماكن ذاتها مثل: ابن جبير، وعبد اللطيف البغدادي، وابن بطوطة.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

ابن الشعار، مبارك بن أحمد (ت 654ه). **قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان**. تحقيق: كامل الجبوري. م5. ج6. ط.1. بيروت: دار الكتب العلمية. 1426/ 2005.

ابن العماد الحنبلي، عبد الحي (ت 1089ه). **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**. ط.2. منقحة. بيروت: دار صادر، د.ت.

ابن جبير، محمّد بن أحمد (ت 614ه). **تذكرة بالأخبار عن اتّفاقات الأسفار**. بيروت، القاهرة: دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب المصري، د.ت.

التلمسانيّ، أحمد بن محمّد (ت 1041ه). **نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب وذكر وزيرها لسان الدّين بن الخطّيب**. تحقيق: إحسان عباس. بيروت: دار صادر، 1968/1388.

الحماديّ المعافريّ، محمّد بن مالك (ت أواسط القرن الخامس الهجري). **كشف أسرار الباطنيّة وأخبار القرامطة**. تحقيق: محمّد بن عليّ الأكوع الحوالي. تقديم وعناية: أحمد العدوي. ط1. القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، 2014.

الزركلّي، خير الدّين. **الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرّجال والنّساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**. ط.5. بيروت: دار العلم للملايين، 1980.

الشهرستانيّ، محمّد بن عبد الكريم (ت 548ه). **الملل والنحل**. تحقيق: محمّد سيد كيلانيّ. بيروت: دار المعرفة، 1980/1400.

لسان الدّين بن الخطّيب، محمّد بن محمّد (ت776ه). **الإحاطة في أخبار غرناطة**. شرح وضبط وتقديم: يوسف طويل. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية، 1424/ 2003.

المقّريزي، أحمد بن عليّ (ت 845ه). **المقفّى الكبير**. تحقيق: محمّد البعلاوي. ط.2 مزيدة ومنقحة. بيروت: دار الغرب الإسلاميّ، 1427 / 2006.

المراجع:

شير، آدّي. **الألفاظ الفارسيّة المعرّبة**، ط.2. القاهرة: دار العرب للبستانيّ، 1987- 1988.

كرد عليّ، محمّد. **خطّط الشام**. ط.3. دمشق: مكتبة النّوري، 1403/ 1983.